محاضرة جديدة – مقياس علم الإجتماع السياسي –

**الهوية .**

مدخل :

في كتابه أزمة الهويات يقول كلود دوبار، ليست الهوية ما يبقى بالضرورة " متماثلاً " بل نتيجة " مماثلة "، وعليه الهوية تعني الاختلاف كما تعني في نفس الوقت الانتماء, و هاتان العمليتان أساس مفارقة الهوية (دوبار، 2000،ص 210).

قد ترتبط القضية بإشكالات النموذج و التراث و النسق في حد ذاته لكن النقاشات التي تتناول الهوية مازال يحيط بها غموض و التباس، وهنا يقول عبد الله العروي في كتابه "مفهوم الحرية " أن الهوية هي تكوين ثقافي في إطار بشري يتبلور عبر مراحل زمنية طويلة تمتد لقرون (العروي، 1981، ص8 )

تحليل :

لنتفق أن الهوية معناها: تعريف الإنسان نفسه فكرًا وثقافة وأسلوب حياة، أو هي مجموعة الأوصاف والسلوكيات التي تميز الشخص عن غيره، وقد ذكر بعض المتتبعين لأصول كلمة (الهوية) أنَّ أصلها من كلمة (هو) وهو ضمير منفصل يعود على شخص ما، ولهذا فمن الخطأ أن ننطق كلمة الهوية بفتح الهاء بل بضمها فنقول (الهُوية) وليس (الهَوية)، فالهوية إذاً هي المرجعية أو الخلفية التي تتشكل منها الشخصية الإنسانية. (عبد العزيز، 2013)، و لكن كيف نتفق على وجود الأزمة ؟

لقد ظهر مصطلح "أزمة الهوية" في دراسات عالم النفس الدنماركيّ "إريك إريكسون" الذي اعتقد أنّ تشكيل الهوية وتكوينها هو عملية ديناميكية تتغير وتنمو طوال الحياة حيث يواجه الفرد تحديّاتٍ جديدة ويختبر تجارب مختلفة في جميع مراحله العمرية، وبالتالي، فالهوية عند إريكسون هي واحدة من أكبر الصراعات التي يواجهها ويختبرها الفرد وتتغير بفعل التجارب الحياتية والأدوار الاجتماعية المتعددة، مثل العمل والزواج والإنجاب والسفر وغيرها ممّا يساعد على استكشاف جوانب مختلفة من النفس في مجالات الحياة (أبو فيزان،2018 ).

لقد أثبتت تحليلات إريكسون إضافةً إلى ما جاء به الطبيب النفسيّ السويسري "كارل يونغ" بأنّ أزمات الهوية والتي في الغالب تكون كامنة ومخبّأة في النفس، قد تتحوّل إلى أنماط سلوكية شخصية مثل الانسلاخ التدريجيّ عن الذات لإرضاء الآخرين، والسعي إلى تحقيق وهم الانتماء. وحين يتعلّق الأمر بالعالم العربيّ، لا سيّما مع التغيّرات الجوهرية والسريعة الحاصلة في السنوات الأخيرة، تُعدّ أزمات الهوية أكثر تعقيدًا ولُبسًا من نظرية إريكسون ويونغ نفسيهما (أبو فيزان، 2018، ص 2 ).

من الواضح أن أحد أهم التحديات الكبرى في القرن الحالي هو معالجة قضية الهوية، بوصفها حالة من حالات التعدد الهوياتي/الثقافي، وهي تأخذ في عالمنا المعاصر أشكالاً مختلفة تحت تأثير السياق التفكيكي لخطاب ما بعد الحداثة و الذي أنتج تحولات في بنية وبيئة الهوية في حد ذاتها، خطاب أسئلة و ليس خطاب أجوبة للأمم و الدول و المجتمعات و الأفراد وكلهم بصدد طرح الأسئلة اللامتناهية على الذات و على الآخر.

بالعودة للهوية كمعنى و كمبنى نكرر التذكير بأنها إحساس فرد أو جماعة بالذات، إنها نتيجة وعي الذات، بأنني أو نحن نمتلك خصائص مميزة ككينونة تميزني عنك وتميزنا عنهم، فالطفل الجديد قد يمتلك عناصر هوية ما عند ولادته بعلاقة مع اسمه وجنسه وأبوته و أمومته ومواطنتيه، وهذه الأشياء في كل حال لا تصبح جزءا من هويته حتى يعيها الطفل ويعرف نفسه بها (مهدي، د. ت، ص 3 ).

الهوية بالتالي ذات صلة بالوعي مهما تفككت وتوزعت دلالاتها و أبعادها فالهوية القومية أو الهوية الدينية أو الهوية العرقية أو الهوية الطائفية، هي نماذج للهوية الضيقة، ولكن هناك نموذج أوسع من ذلك عندما تكون الهوية جامعة لأكثر من قومية وأكثر من دين أو أكثر من عرق وأكثر من طائفة، وبهذا تتجاوز الهوية إطارها الضيق لتعبر عن المشترك الأوسع في الانتماء، وهي الهوية الوطنية التي تنتمي لجغرافية وتاريخ ومصالح مشتركة.

فاللغة مثلا تعتبر أقدم تجليات الهوية، أو لنقل ''هي التي صاغت أول هوية لجماعة في تاريخ الإنسان، إن اللسان الواحد هو الذي جعل من كل فئة من الناس "جماعة" واحدة، ذات هوية مستقلة، ويزداد الاهتمام باللُّغة والهوية معا، ويشيع الحديث عنهما، في المنعطفات أو المفاصل التاريخية في حياة الجماعات وهي منعطفات أو مفاصل ليست من نوع واحد، فقد يكون منعطفًا أو مفصلا حضاريا إيجابيا نحو الحضارة والتقدم، وقد يكون سلبيا تتعرض فيه للانكسار، وتغزوها رياح التشتت والانطماس، وربما الغياب عن ساحة الفعل والتأثير، في كِلا الحالين تبرز قضية اللغة، وقضية الهوية، وفي الغالب يتم الربط بينهما إلى درجة أنهما يكادان يصبحان شيئا واحدا.

وإذ يجد بعض الكتاب، إن الهوية الوطنية مقوما له دلالته في مذهب إنساني جديد، فهي ليست جوهرا ميتافيزيقيًا أبديا قبليا، و ليست ((معطى )) محددا مسبقا و ليست تراثا محتوما لا حول عنه مقذوفا به من الماضي ومنيعا لا يؤثر فيه البعد الزمني، ولا المتغيرات التاريخية، بل هي واقع دينامي تأريخي زمني، لجسد تعاد صياغته وتشكيله وتنميته .

النتيجة :

الزمان و المكان و الإنسان إن الهوية الوطنية لا تكتسب مقدرتها على البقاء فضلا عن مصداقيتها إلا بـــ:ـ

1- مقدرتها على التطور والتفاعل مع المعطيات الاجتماعية السياسية والثقافية والتاريخية في إطار تسويات كبرى داخل الجماعة الوطنية التي تنتج الأمة.

2- وعيها لهذه الخصوصية المرنة و الانفتاح والاستجابة النقدية.

د.عكنوش .